هدية العيد

قصة: اسماعيل الصغير
رسوم: محمد شمس الدين

حين اتّجه إلى غزة، كان يأمل أن يبيع في أسواقها ما يعوّضه مما فاته في الأسابيع الماضية.

عند مدخل المدينة، نصب جنود الاحتلال حواجز حديدية، وكان صفّ طويل من السيارات قد وقف إلى جانب الطريق، والعيون شاخصة نحو الحاجز، حيث وقف أحد الجنود يدقّق في هويات العابرين.

بعد ساعتين اجتاز الحاجز. إبتلع غَضَبه الذي كان يجيش في صدره، ونزع من ذهنه صُوَر وجوههم الكالحة، المَقيتة.. عاد بخياله إلى البيت.. إسترجع صورة ابنته زينب.. تخرج مسرعة، فتتعثّر، لكنها لا تأبه، وترفع صوتها منادية: لا تنْسَ يا بابا.. أريدها لعبة كبيرة.

وفتحت ذراعيها.. تماماً، كما تفعل حين تُلاقيه عند الباب لدى عودته عصر كل يوم من العمل.

في السوق، باع كما لم يبعْ منذ شهور، واشترى لزينب دمية دبّ من الفرو المحشوّ. وجمع بضاعته، ثم انطلق عائداً إلى بلدته.

كان لم يزل في ضاحية غزة، حين دوّى في سماء المنطقة صوت انفجار قذيفة، ثم تلتها ثانية، وثالثة، وبدأ إطلاق نار غزير، تتجاوب أصداؤه هنا وهناك.

وأُسْقِطَ في يده.. أيعودُ إلى المدينة أم يُكمل؟

البقاء على الطريق فيه خطر أكيد، فالمُسْتوطنون وجنود الاحتلال يُصبحون كالذئاب المَسْعورة، فما إن يسمعوا إطلاق نار حتى يهاجموا أي شيء، ويطلقوا النار على أي شيء، خوفاً ورعباً.

لمح مزرعة غير بعيدة عن الطريق، فاتّجه إليها.

أوقف سيارته في ركن منعزل. أمام الدار تمتدُّ مجموعة من الدفيئات* الزراعية، وكان ثمّة رجل يغلق باب واحدة منها. ومن وراء بستان النخيل، كانت أصوات الرصاص تئزّ، ومجموعة

* الدفيئة: خيمة من الزجاج أو البلاستيك تستعمل للزراعة.

من عصافير الدوري تؤوب هاربة، نحو المزرعة.

إستقبله الرجل، وفي عينيه سؤال. قال له بتردّد: كنت قاصداً خان يونس، وقلتُ لعلّي أستطيع الانتظار عندكم إلى حين يتوقف الـ... فالرصاص، والمستوطنون و..

لم يعلّق الرجل، قاده من يده مُرحّباً: ألم تسمع بالعملية التي نفّذها المجاهدون.. الاحتلال بدأ يفقد أعصابه، وجنوده قطعوا كل الطرق.. والمستوطنون يقيمون الحواجز، ويعتدون على كل فلسطيني يقع تحت أيديهم.. هيا... أدخل.

سهر مع مضيفه هزيعاً من الليل، ثم نام.

ومع انبلاج الفجر استيقظ على صرير آليات.

نزل الصوت على قلبه كصخرة هَوَتْ عليه من عَلٍ، وسمع صوت مضيفه يستيقظ أيضاً.

وسمع مزيداً من الآلات تزحف، وخمَّن أن واحدة على الأقلّ، رابطت عند مدخل الدار.

دخل مُضيفه عليه. قال له، إذْ رآه مستيقظاً: لِنكُنْ جميعاً في غرفة واحدة.. تعال.. إنهم في الدار.

فتح الرجل الباب ليستطلع ما يجري. ومن وراء كتفه، رأى أحد الجنود يصوّب إليه السلاح، ويأمره بالبقاء داخل البيت، وإغلاق الباب.

مضى الوقت بطيئاً.. بطيئاً، وفيه قَلَقٌ، وترقّب.

وعلى حين غرّة، مزّق هدوء الانتظار بوق سيارة، وجلبة.

خطف نظرة من وراء ستار النافذة.. كانوا كقطيع كلاب مسعورة بذقونهم الكثّة، وشعورهم الشَعْثاء، وسحناتهم التي شوّهها الحقد. بعضهم تسلّح ببنادق ومسدسات، وآخرون حملوا هراوات أو فؤوساً.

ووصلت سيارات أخرى.. وعلى متنها مستوطنون، يصرخون، ويولولون.

بدؤوا بأصص الزهور فحطّموها، ودمّروا الأحواض، ثم أشعلوا النار في الدفيئات الزراعية، وأطلقوا النار على النوافذ والأبواب، ووجهوا لأصحاب المنزل شتائم، وإهانات.. ودعوهم إلى الخروج لملاقاتهم..

لقد عاثوا فساداً في كل مكان، قبل أن يرحلوا، وبعد ساعة انسحب الجنود أيضاً.

قال له مضيفه، وهو يخرج برفقته ليعاين الخسائر: هذه هي المرة الثانية. وفي المرة الثالثة سنصمد أيضاً.

إتّجه إلى حافلته.. كان الزجاج الأمامي محطّماً، ويد الدب ممزّقة، وأحشاؤها متناثرة على المقعد.

عند الظهر عادت حركة السير طبيعية، فاطمأنّ، وودع مضيفه.

لمحته زينب.. جرت فاتحة ذراعيها، وهي تسأل: لماذا تأخّرت؟

لم يردّ.. قدم إليها الدبّ، الذي بات الآن بيد واحدة.

نظرت بحزن إلى الدمية، وقالت: لم أعد بحاجة إليها. قال: ألأنها بيدٍ واحدة؟

أجهشت زينب بالبكاء. قالت: لا.. كنت سأخذها هدية العيد إلى فاطمة. لقد استشهدت.. استشهدت وهم يخرجون الرصاصة من صدرها أمس.

ضغط على يد الدمية الممزّقة.. صمّم أن يُرمّمها، وخطا إلى البيت لاحقاً بزينب.